الفازة

وحدي في البيت، ليس هناك أحد على الإطلاق، صعدت السلم من البدروم إلى الطابق الأول، حيث الصالون الرئيسي للبيت، فتحت الحجرة الرئيسية، المحراب الرخامي المقدس لسيدتي، لا أستطيع أن أدخله بدونها وتحت إشرافها، حيث يضم أهم التحف من جميع أنحاء العالم.

وقفتُ أمامها، كانت تضعها على طاولة خشبية في وسط الصالون الرخامي تماماً، فازة نادرة، هكذا يطلقون عليها، درت حولها، وفي الطواف الأخير وقفت أتأملها، أريد أن أعرف لماذا هي أغلى مني ؟ هل تتنفس ؟ هل تشعر ؟ . . هذه الفازة حديث العائلة ومزار الضيوف الأكابر، قصة شرائها واقتنائها حكاية تُحكى.

جلستُ أمامها على الأرض طبعاً، فمثلي لا تجلس على مقاعد الأكابر حتى لو كانت وحيدة منفردة لا يراها أحد، جلستُ بعيداً عن السجاد، فلابد أنه نادر مثل الفازة الداكنة، يكفيني شرفاً أنني جلستُ في هذه الغرفة وأمام هذا المزار المقدس، تذكَّرت الحجرة المتواضعة التي كنت أعيش فيها قبل انتقالي إلى هذا البيت الفخم، تذكرت بالتحديد

الركن الضيق الذي كنت أنام فيه، كان متواضعاً للغاية، ولكنني هناك كنت أشعر بكرامتي.

كم انهالت الكفوف على وجهي مُهدرة كرامتي بشكل قاس أمام الجميع، هؤلاء الذين لا يهتمون إلا بالأشياء النادرة، أمي عيَّرتني بكرامتي، فمثلي عليها أن تنسى كرامتها تماماً، وأن تتذكر أن خلفها كومة لحم يريدون أن يتنفسوا ويعيشوا ويأكلوا، بل إن الأكل لأمثالنا رفاهية مطلقة، أما الكرامة وما على شاكلتها فليست لمثلي، كلها مصطلحات يجب أن أنساها، يجب أن أعتاد الضرب والإهانة، فهذا أمر يومي عادي مثل الأكل والشرب.

أخبرت أبي أنه يُلعن كل يوم بل كل ساعة، ضحك، وكأن الأمر لا يعنيه، أخبرني بأن الشتيمة لا تلتصق، فعلاً لا شيء يلتصق مع أمثالنا، لا شيء نثور لأجله ، لا شيء، فنحن لا نمتلك حتى أنفسنا، نحن ملك للجميع.

كانت لي غرفة صغيرة مستقلة في البدروم، تحتويني كل مساء، أذوب فيها مع عرقي وجسدي المنهك، أبكي فيها وحدي، أندب حظي، أسأل الله طريق الرحمة، أتأمل شكلي الشاحب الباهت، وهذا الإيشارب الذي يلف رأسي ويطبق على نافوخي فيحدد قدراته،

وكـأنني خُلقـت بـه، فهـو لا يـبارحني لـيل نهـار، صـار جـزءاً من تكـويني، لم يكن أحد يراني، أنا وحدي أشارك نفسي كل هذا الكم مـن الأحاسـيس المحـبطة، أنظـر لنفسـي في المـرآة المكسورة بغرفتي، فأرانـي ناقصـة، جزء كبير مني ضائع، أحياناً كثيرة أتمنى لو لم أُخلق أصـلاً، أي إحـباط هـذا الذي عشش داخلي وتملكني، لم أجد وسط هـذا البشـر حضـناً يحتويني، حتى أمي كانت تكيل لي الشتائم، كان ردهـا على آلامي وتوسلاتي صفعة قوية، تركت آثارها على وجهي، لم تهـدر كـرامتي بشـكل كامل فهي أمي، ولكنها أعادت العقل لي، فـرأيت السـيدة التي أعمل عندها أطيب وأرق مخلوقة، ورأيت البيت الذي أعمل فيه ولا أطيقه قطعة من الجنة، وغرفتي المخنوقة في البدروم ذات هـواء علـيل، حتـى الحذاء المقطوع في قدمي رأيته جديداً يلمع، أدركـت أنـني مـثل الـبقايا، بقايا الطعام التي يتركونها لآكلها، بقايا الملابـس الـتي أرتـديها بعـد أن بلـيت وبطلـت موضـتها تمامـاً، بقايا الأحذيـة التي ألبسها حتى لو لم تكن مقاسي، أنا بقايا إنسانة ضاعت معالمها وتبددت، بهتت ألوانها مثل الإيشارب الذي على رأسي.

تعـبتُ، لابـد لهـذا الجسد المنهك أن يتعب، لابد لهذه الروح أن تُحلّـق، لابـد لهـذا العقـل أن يحلـم، فأنـا رغـم كـل شيء بشر أرى وأشـتهي، لسـت عديمـة الإحساس كما يعتقدون، ولكنني أكتم هذا

وأتناسى أنني بشر، وأتذكر كل يوم أنني خادمة أو حقيرة كما اعتادت سيدتي أن تناديني، أو غبية شديدة الغباء كما يظنون.

أمي أيضاً تعمل خادمة، ولكنها خادمة منذ زمن طويل، تدربت على قتل أحاسيسها، وفي النهاية أجادت. كنت أفكر دوماً في مصيري، فحتى لو تمردت وثرت، لو تزوجت سأعود خادمة مرة أخرى، هذا هو قدري، منه بدأت وإليه أعود، وبدلاً من أن تذهب النقود إلى إخوتي ستذهب لأولادي، من الأفضل أن أبقى بلا زوج، بلا أطفال، لا أريد مزيداً من القيود.

نظرت إلى الفازة، اقتربت منها، لمستها بيدي، تحسستها، أجل.. نلت هذه المكانة، تساءلت: لماذا هي أغلى مني؟

سؤال شغلني طويلاً، ربما لأن عمرها مئات الأعوام، ربما قيمتها تكمن في خلودها، عرفت.. السر في الخلود، أنا سأموت والفازة باقية، أنا شيء يُستهلك بمرور الوقت، لا أعتقد أنني سأعيش مئات السنين مثلها. حملتها بين يدي، كم أكره لونها الداكن كما أكره سيدتي تماماً، نفس الكآبة.

ألقيتها على الأرض الرخامية، تهشمت تماماً، تحولت آلاف الجنيهات إلى قطع صغيرة، شعرت بالسعادة، حطمت شيئاً أغلى

مني، لقد صارت لا تساوي شيئاً بينما أنا باقية، لقد صرتُ الآن أغلى منها، فأنا دوماً أغلى من البقايا.

أعرف أن قلب سيدتي سينفطر عليها، وسيتحول إلى أشلاء تشبه هذه القطع الصغيرة، لا يهم، لطالما أهدرت كرامتي وحَوَّلتها لشيء لا قيمة له.

غادرتُ المحراب الرخامي، حملتُ حقيبةً صغيرة فيها بعض البقايا، لست لصة ولن أكون. غادرت المنزل، هذه المرة بلا عودة، لن أعود لأحد، لقد أعطتني أمي درساً قاسياً، علمتني أنني بلا كرامة، ولو كان الثمن أن أضحي بكرامتي، فلابد أن يكون العائد مجزياً يستحق التضحية. لم أكن أعرف طريقاً واضحاً، ولكنني سعيدة، شعرتُ بالحرية، فأنا لن أُصفع على وجهي بعد اليوم، لن أقبل بهذا مرة أخرى.